مجلة أبوليوس
المجلد 09 العدد 02– جويلية 2022 الصفحات: 235- 246

اجتماعيّة اللّغة في الدّرس النّحوي عند سيبويه: دراسة في باب الاستقامة من الكلام والإحالة

The Sociology of Language in Sibawayh's Grammar Lesson: A Study of the Chapter on the Uprightness of Speech and Reference

ط. د. عزالدين شحيمة[1]*، أ. د. بوعلام طهراوي[2]

[1] مخبر اللّغة العربيّة العلميّة والتّعليميّة جامعة آكلي محند أولحاج البويرة (الجزائر)
a.chaima@univ-bouira.dz
[2] مخبر اللّغة العربيّة العلميّة والتّعليميّة جامعة آكلي محند أولحاج البويرة (الجزائر)
b.tahraoui@univ-bouira.dz

تاريخ الاستلام: 2022/05/23 تاريخ القبول: 2022/07/30 تاريخ النشر: 2022/07/31

ملخص البحث:

يتناول هذا البحث الجانب الاجتماعي من اللّغة عند سيبويه، ويُحاول الكشف عن العلاقة الّتي تربط بين التّقعيد النّحوي لديه بما هو خارج البنية اللّغويّة، وذلك من خلال دراستنا باب الاستقامة من الكلام والإحالة الّذي أورده سيبويه في مقدّمة كتابه.

وقد توصّلت الدّراسة إلى:

_ أنّ اجتماعيّة اللّغة تصوّر سيطر على فكر سيبويه أثناء وضعه نظام اللّغة النحويّ؛ فنقل المفاهيم من إطارها الاجتماعي وجعلها معايير لتقويم تراكيب النحو.

_أنّ التّصوّر الاجتماعي للّغة صار جزءًا من منهج التّحليل عند سيبويه يُلتمس في مختلف مسائل النحو الّتي تضمّنها الكتاب.

_ أنّ للأعراف الدّينيّة والاجتماعيّة أثر كبير في تأسيس الدّرس النحوي العربي، وذلك نتيجة امتثال النحاة لأعراف المجتمع.

الكلمات المفتاحية: اجتماعيّة؛ الإحالة؛ الاستقامة؛ سيبويه؛ الدّرس النّحوي.

Abstract:

This research deals with the social aspect of language according to Sibawayh. It attempts to reveal the relationship between the grammatical production and what is outside the linguistic structure through studying the chapter on the uprightness of speech and reference that Sibawayh mentioned in the introduction of his book. The study unveiled that the sociability of the language is a perception that dominated Sibawayh's thought during his development of the grammatical system for the language. He transferred concepts from their social framework and made them standards for evaluating grammatical structures, and this social conception of language became part of Sibawayh's method of analysis which is perceived in the various grammatical issues included in the book. The religious and social norms have a significant impact on establishing the Arabic grammar lesson as a result of grammarians' compliance with the norms of society.

Keywords: Social; reference; uprightness; Sibawayh; grammar lesson.

.

* المؤلف المراسل

مقدمة:

جمع سيبويه أثناء وضعه نظام النحو بين جانب اللّغة البنائيّ، ومواقف استعمالها، ذلك أنّ اللّغة ظاهرة اجتماعيّة غايتها تحقيق التّواصل بين أبناء المجتمع، فنقل الألفاظ وما يرتبط بها من دلالات، من إطار استعمالها الاجتماعي إلى أبواب النّحو، حتّى صارت جزءا لا يتجزّأ من منهج التّقويم النحوي لديه. ومن تلك الألفاظ لفظا الاستقامة والإحالة، وما يرتبط بهما من صفات اجتماعيّة وأخلاقيّة كالحسن، والقبح، والكذب، وهذه الألفاظ والمفاهيم اللّغوية صارت أحكامًا مطّردة في منهج سيبويه التّحليلي لمختلف مسائل النحو. وعلى هذا الأساس طرحنا التّساؤل: ما هي الدّلالات الاجتماعية المُتضمَّنَة في لفظي الاستقامة والإحالة عند سيبويه؟

يبدو أنّه قد نبّه في وقت مبكّر إلى الجانب الاجتماعي من اللّغة، وهو ما جعله يصدر هذه الأحكام التي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بما هو خارج عن اللّغة، من مُتكلّم ومُخاطَب وسياق تخاطُب. وسنحاول في هذا البحث بيان جانب اللّغة الاجتماعي عند الرّجل من خلال تتبّع هذه الألفاظ والمفاهيم، وكذا الكشف عن دوافع انتقالها من إطارها الاجتماعي إلى أبواب النحو عنده.

فالألفاظ الّتي استخدمها في كتابه تحمل في طيّاتها دلالات مختلفة، فبالإضافة إلى غايتها النّحوية نجد لها أبعادًا أخرى، كالبعد الثّقافي والبُعد الدّيني، وهو ما تجلّى بوُضوح في مختلف مسائل النحو الّتي تضمّنها الكتاب، لذلك يُمكن القول إنّ اختياره لهذه الألفاظ لم يكن اختيارًا عشوائيًّا بل كان اختيارًا مقصودًا صاغه وفق ما يتناسب ومجريات العصر آنذاك، حيث كان للمجتمع أثر كبير في توجيه عمل النحّاة_ومنها الألفاظ الّتي يستخدمونها_أي أنّ اختيار سيبويه كان امتثالًا لمعطيات مجتمعه، فلم ينحصر فكره في شرح مسائل النحو وبيان أحكامها فقط، بل تعدّى ذلك إلى مسائل أخرى منها ما تناولناه في بحثنا هذا وهو ربط اللّغة بالمجتمع والفكر، من خلال تطرُّقنا للألفاظ الاجتماعيّة الّتي اعتمدها سيبويه في بناء درسه النحوي.

1- السّياق الاجتماعي:

اتُّهم النحو العربي بأنّه صناعة لفظيّة لا علاقة له بأغراض المتكلّمين وواقعهم، والحقيقة هي أنّ «النحو العربي ليس مجرّد قوالب وأنماط صمّاء لا حياة فيها، وإنّما هو نظام لغوي وغير لغوي أدركه العربي بفطرته، وعبّر عنه بتراكيبه مستوعبا ركني هذا النّظام، فالنّحو العربي حالة إبداع من العربي...بل هو حالة إبداع أيضا من الناظر في كلام العرب نحو: سيبويه والجرجاني والسكاكي، وغيرهم الذين تميّزوا بالكشف عن مقاصد العرب في كلامهم»[1]. ولو تأمّلنا في كلامهم «لألفينا حرصهم الشديد على الرّبط بين اللّفظ والمعنى، أو المقال والمقام في سياق اجتماعيّة اللّغة، دون الانشغال بالصّبغة الجماليّة البحتة للتراكيب»[2]، ذلك«أنّ النحّاة هم أبناء بيئتهم، فلم يكونوا بمنأى عن مجريات العصر، وإنّما أخذوا على عاتقهم مهمّة تصوير هذه المجريات والوقائع الاجتماعيّة الّتي تتقالب في عصرهم، وتحدث داخل بيئتهم؛ فقد امتثلوا لمعطيات الوقائع الاجتماعيّة واستنطقوها على نحو فاعل في تأسيس أصولهم النّحويّة»[3] وهذا ما جعل سيبويه يركّز في كتابه على المواقف الاستعماليّة (السّياق غير اللّغوي)، التي يجري فيها الخطاب، وذلك حتى ينجح التّواصل اللّغوي الّذي يمثّل وظيفة اللّغة الاجتماعيّة الأساسيّة، ذلك أنّ «اللّغة مسلك اجتماعي موصول بأعراف المجتمع، يتأثّر بها ويدلّ عليها، سواءٌ أكان ذلك في الأداء اللّغوي

أم كان في البنية الذّهنيّة الّتي تُوجّهه...وليس تأثّر اللّغة بوقائع المجتمع بمنحبس في مستوى دون آخر، فهو يشمل الأصوات وألألفاظ والتّراكيب على حدّ سواء»[4].

وفي تأكيده عل عناية النحاة بالعوامل الاجتماعيّة في اللّغة، يقول كمال بشر: «إنّهم لم يقتصروا على النّظر في بنية النص اللّغوي، كما لو كان شكلًا منعزلًا عن العوامل الخارجيّة الّتي تلفّه وتحيط به، وإنّما أخذوا مادّتهم اللّغويّة على ما يبدو من معالجتهم لها على أنّها ضرب من النّشاط الإنساني الّذي يتفاعل مع محيطه وظروفه، كما فطنوا إلى أنّ الكلام له وظيفة ومعنى في عمليّة التّواصل الاجتماعي، وأنّ هذه الوظيفة، وذاك المعنى لهما ارتباط وثيق بسياق الحال أو المقام وما فيه من شخوص وأحداث»[5]

وقد أكّد الشّاطبي بأنّ سيبويه «...وإن تكلّم في النحو، فقد نبّه في كلامه على مقاصد العرب وأنحاء تصرّفاتها في ألفاظها ومعانيها، ولم يقتصر فيه على بيان أنّ الفاعل مرفوع، والمفعول منصوب»[6] ذلك أنّ «العلاقة بين اللّغة والنّحو علاقة عموم وخصوص؛ فما يأباه النّحو قد يستعمله العربي في لغة من اللّغات...لأنّ اللّغة أوسع من قواعد النّحو وقوانينه»[7] وقد لاحظ العرب «الارتباط الوشيجي بين اللّغة والبيئة، كما يتجلّى ذلك في كتب بعض علماء اللّغة كابن جني، وكتب النحاة ككتاب سيبويه، الّذي أومأ إلى الوجهة الاجتماعيّة في صياغة النّحو»[8].

إنّ تجاوز سيبويه -أثناء تحليله التّراكيب- التّحليل الشكلي الّذي يركّز على العلاقات بين عناصر التّركيب من تأثير وتأثر، وتجاوزه للمعاني الصرفيّة والنحويّة «يؤكّد وعيه بأنّ اللغة لا تنطق ولا تفهم في حدّ ذاتها بل في ضوء الملابسات والظّروف المحيطة بالمتكلّمين، مثل الظّروف الاجتماعيّة، وإبراز الدّور الاجتماعي الذي يقوم به المتكلّم وسائر المشتركين في الكلام، ووجوب تحديد بيئة الكلام؛ لأنّ هذا التحديد يضمن عدم الخلط بين لغة وأخرى أو بين لهجة وأخرى»[9]، ذلك أنّ اللّغة عند سيبويه «هي سلوك اجتماعي بين أطراف الخطاب: المخاطِب و المخاطَب والمؤثرين في هذا الموقف الكلامي، وكذا ملابسات الحال لهذا الموقف، وليست الألفاظ إلّا قوالب شكليّة دالة على هذا السلوك الاجتماعي»[10]. فالحال (السياق) يمثّل الجانب الاجتماعي في اللّغة. وقد أولاه سيبويه عناية كبيرة وذلك لارتباط المعنى به ارتباطًا وثيقًا.

2- مفهوما الاستقامة والإحالة:

أورد سيبويه في مقدّمة كتابه بابا أسماه "باب الاستقامة من الكلام والإحالة"، حيث يقول: « فمنه مستقيم حسن ومحال ومستقيم كذب ومستقيم قبيح وما هو محال كذب.

- فأمّا المستقيم الحسن فقولك: أتيتُك أمس وسآتيك غداً؛
- وأما المُحال فأن تنقض أول كلامك بآخره.فتقول: أتيتُك غداً وسآتيك أمس؛
- وأما المستقيم الكذب فقولك: حملتُ الجبل وشربتُ ماء البحر؛
- وأمّا المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه نحو قولك: قد زيداً رأيت وكي زيداً يأتيك وأشباه هذا؛
- وأمّا المحال الكذب كأن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمس»[11].

فسيبويه يقسّم الكلام إلى خمسة أقسام، تدور حول الاستقامة والإحالة، أي أنّ المستقيم والمحال هما القسمان الرئيسيان ويندرج تحت كلّ منهما

فروع أخرى ثانوية. وهو ما جسّده محمد عبد اللّطيف حماسة في الشكل التّالي:

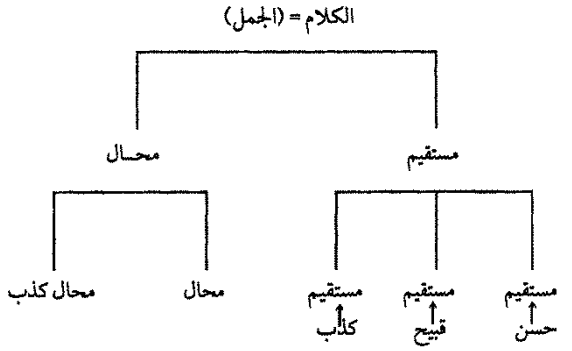

واكتفى سيبويه في هذا النص _ كما هو مبيّن_ بتعريف قسمين منه فقط وهما: (المحال) و(المستقيم القبيح)، واعتمد على الأمثلة في تحديد دلالات الأقسام الأخرى. وفيما يلي توضيح لهذه الأقسام الخمسة:

2-1- الكلام المستقيم:

ويقصد به «الذي لم يكن في لفظه خلل من جهة اللغة والنحو»[12]، أي «الكلام المستقيم استقامة نحوية ودلالية»[13]، فمن الجانب النحوي فإنّ كل جملة صحيحة نحويّا هي جملة مستقيمة، أمّا الجانب المعنوي (الدّلالي) فيرتبط بما يلحق الكلام المستقيم من صفات: الحسن، والكذب، والقبح.

المستقيم الحسن: وهو«الذي لم تتصادم فيه قواعد الاختيار في الوظائف النحويّة والمفردات بدلالتها الأوليّة»[14]، فهو يُمثّل للكلام المستقيم الحسن بمثالين هما:

أتيتُك أمس وسآتيك غداً. وما يلاحظ في هذين المثالين اللّذين ساقهما سيبويه للكلام المستقيم الحسن أنّه جمع فيهما بين السّلامة النحويّة، والحسن المعنوي (الدلالي).

المستقيم الكذب: وهو الذي تتحقّق استقامته في اللفظ دون المعنى،«والكذب إنّما هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو به»[15]، وقد قدّم سيبويه للكلام المستقيم الكذب مثالين أيضا هما:

حملتُ الجبل وشربتُ ماء البحر. فالمثالان صحيحان نحويّا، لكنّهما يحملان صفة الكذب، والمقصود بالكذب هنا «ليس كذبا أخلاقيّا، لأنّ كثيرا من الكذب الأخلاقي المعبّر عنه بالكلام يمكن أن يكون من (المستقيم الحسن)...،ولكن (الكذب) هنا يمكن أن يطلق عليه كذب دلالي. وقد تمثّل هذا الكذب الدلالي...،في التفاعل بين الوظائف النحويّة بعلاقاتها وما يمثّلها من المفردات بدلالاتها»[16].

ففي المثال الأوّل مثلا نجد أنّ الفعل حمل، والمفعول به الجبل، هو الدافع للحكم على الكلام بأنّه مستقيم كذب، أي مستقيم نحويّا وكذب دلاليّا.

المستقيم القبيح: عرّفه بأنّه وضع اللفظ في غير موضعه، ومثّل له بمثالين هما:

قد زيداً رأيت وكي زيداً يأتيك. وتكمن استقامة هذا الكلام في عدم اشتماله على لحن يبعده عن مقصديّته؛ كرفع المنصوب ونصب المرفوع وغير ذلك. وإنّما قبُح بسبب أنّ بعض عناصر التركيب وُضعت في غير موضعها، وهو ما خرج به عن القياس الذي يقتضيه نظام اللغة. يقول أبو هلال العسكري: «وإنّما قبح؛لأنّك أفسدت النّظام بالتقديم والتأخير»[17]. فالاستقامة في المثالين السابقين هي استقامة دلاليّة حيث لم تتأثّر الدلالة بالتقديم والتأخير الذي مسّ عناصر التركيب. وإنّما وُصف الكلام المستقيم ههنا بسبب وضع اللّفظ في غير موضعه، وهو ما يعني أنّ القبح مرتبط باللفظ لا بالمعنى.

2-2- الكلام المحال:

يعني أن تنقض أوّل كلامك بآخره،وينقسم إلى ضربين؛ أوّلهما محال،وثانيهما محال لحقت به صفة الكذب أي محال كذب، ساق للأوّل مثالين، وللثّاني مثالاً واحدًا على النحو التّالي:

المحال: قدّم له مثالين هما: أتيتُك غداً وسآتيك أمس. والمُلاحظ في هذين المثالين أنّ النّظام النحوي لم يصبه أي خلل أي أنّهما صحيحان في القياس والاستعمال وإنّما وقع الفساد في المعاني المتضمّنة فيهما. فالإحالة هنا «جاءت من كسر الاختيار في المستوى المنطوق، حيث اختير ظرف زمان وهو(غدا) _ودلالته الأوليّة المستقبل_ مع الفعل الماضي (أتى)...،ولذلك صار تقييد زمن الإتيان _الذي حدث فعلا_ بالظرف الدّال على المستقبل نقضا أدّى إلى أن صار الكلام محالاً...،وعكس ذلك في (سآتيك أمس)»[18]. وعليه فإنّ التناقض الذي قصده سيبويه هو تناقض دلالي رغم اتّصاف الكلام بالصحّة النحويّة.

المحال الكذب: وهو الضرب الثاني من الكلام المحال الذي ذكره سيبويه، مُقدّمًا له مثالاً هو:

سوف أشرب ماء البحر أمس. وهو يشبه المثالين السابقين من حيث إنّ بنيته الأساسية صحيحة، ويمكن بالقياس عليه بناء آلاف الجمل الصّحيحة، كما أنّ الوصفين (المحال) و(الكذب) في هذا المثال متعلّقان بالمعنى، حيث يقول السيرافي: «فأمّا استحالته فلاجتماع سوف وأمس فيه، وهما يتناقضان ويتعاقبان. وأمّا الكذب فيه، فإنّا لو أزلنا عنه أمس الذي يوجب المناقضة والإحالة لبقي كذبا»[19]، أي أنّ الإحالة لها علاقة بالتناقض، والكذب مرتبط بذكر الشيء على خلاف ما هو عليه.

لقد جمع سيبويه في تقسيمه هذا بين الشّكل والمضمون (لفظ ومعنى). فالمستقيم وما يلحقه من صفات، الحسن والكذب والقبح، هي تراكيب صحيحة لم تخرج عمّا أقرّه النّظام اللّغوي العربي، واستخدامها في الكلام يندرج ضمن ما هو مُتاح للمتكلّم من اختيارات. أمّا المُحال فإنّ معناه في لفظه؛ أي أنّه لا ينبغي استخدامه في الكلام؛ لأنّه لا يحمل أي دلالة وهو الأمر الّذي يُخرجه من إطار النّظام اللّغوي المُتعارف عليه.

3- لفظ (الاستقامة):الدّلالة والخلفيّة:

تتعدّد دلالات لفظ الاستقامة بتعدّد العلوم الموظِّفة له، والذي لا شكّ فيه هو أنّ«الثّقافة التي نشأ في كنفها سيبويه ثقافة إسلامية تستمدّ مقومات وجودها من القرآن الكريم، والسنّة المطهّرة. وهذه الثّقافة بلا شك تسعى إلى إنشاء بنية سليمة، غير متناقضة، منضبطة بأحكام، وتسير على وفق نظام مُؤطَّر بدلالات الاستقامة»[20]، قال تعالى: ((اهْدِنا الصِّراط المستقيمَ)) الفاتحة 5. وقال سبحانه وتعالى: ((...فاسْتَقِمْ كما أُمِرْتَ...)) الشورى13. وقال جلّ علاه: ((وأن لو استقاموا على الطَّريقةِ لأَسْقَيْناهُمْ ماءً غدقًا)) الجن16. فـ:«أدرك النحاة قديمًا قيمة القرآن الكريم وعلو منزلته، فاحتجّوا بألفاظه وأساليبه، وبنوا عليها قواعدهم وأصولهم اللّغويّة والنحويّة والصّرفيّة»[21]، حيث يُلاحظ مُتتبّع الدّرس النّحوي العربي أنّ مصطلحات النحاة لم تخلُ من التّأثُّر بالدّين والعادات الاجتماعيّة، فـ:«النحوي لا ينسلخ من خلفيته الثّقافيّة ومعتقداته الدّينيّة واتّجاهاته الفكريّة»[22]

لذلك فإنّ دارس الكتاب يجد أنّ دلالة هذه المادّة وما يُشتقّ منها ظاهرة بوضوح فيه نحو: المستقيم، ويستقيم، ولم يستقم، ولا يستقيم. وهو ما يعني «أنّ هذه المصطلحات من أسس نظريّته في توجيه الكلام والحكم عليه؛ وذلك عندما...جعل الكلام على صنفين هما: المستقيم، والمحال. وتجلّت دقّته في استقصاء الدلالات الدّقيقة لكلّ مصطلح؛

إذ لم يكن لديه المستقيم صنفا واحدا فحسب،بل هو على أصناف»[23]، وهذه الأصناف كما ذكرها هي: «المستقيم الحسن، والمستقيم الكذب، والمستقيم القبيح. وكذلك المحال، فمن الكلام ما هو محال، ومنه ما هو محال كذب»[24]. كما أنّ المتتبّع لهذه المفردات (المستقيم، والحسن، والكذب، والقبيح، والمحال) يجد أنّها مفردات اجتماعيّة ترتبط بالسلوك الإنساني، نقلها إلى النحو، ذلك «أنّ اجتماعيّة اللّغة تصوّر سابق عند سيبويه، وأصل من أصول فهمه اللّغوي؛ لذلك عامل اللّغة معاملة السّلوك الاجتماعي، وبنى جميع تحليلاته على وفق هذا الفهم»[25]، وهذا الأمر أكّده مايكل جي كارتر في قوله: «ويتعامل سيبويه مع اللّغة على أنّها شكل من السّلوك الاجتماعي، فيتبنّى المقاييس الاجتماعيّة السّائدة في عصره في تقويم مستوى الصّواب في اللّغة على جميع مستويات التحليل اللّغوي: فمصطلحا (حسن) و(قبيح) يشيران إلى الصواب البنيوي، على حين يشير مصطلحا (مستقيم) و(محال) إلى مدى قدرة المتكلّم على التّواصل ضمن تقاليد المجتمع»[26].

المُلاحَظ من خلال هذا القول أنّ سيبويه يُميّز بين الكلام المستقيم، والمحال في التّراكيب اللغويّة، جامعًا في تحليله بين ما يرتبط بنظام اللّغة من جهة، وما يرتبط بمواقف استعمالها من جهة ثانية، لذلك «وضع أحكامًا، وضوابط لوصف الكلام بالاستقامة، أو بالاستحالة، تبعا لملابسات الاستعمال اللّغوي، فضلا عن استقامة البناء النحوي بارتصاف عناصر التركيب وانتظامها على وفق ما تجيزه مواضعات اللغة...،لذلك جعل سيبويه الكلام المستقيم في أعلى مراتب الكلام؛ لانتظامه شكلا، وصدقه معنى»[27]، وهو ما يؤكّده كارتر بقوله: «فيكون أحسن ما يقابل مصطلح مستقيم أن يكون صحيحا ضمن معنى (ملائم أو مناسب أو صائب اجتماعيا)؛ لكون اللّفظة تعبّر عن واجب المتكلّم في أن يكون مفهوما؛ ومثله مصطلح محال الذي يفضل له أن يؤخذ على أنّه يعني (خطأ)؛ لكونه يشير إلى ألفاظ لا يمكن أن تصلح للتواصل»[28]. وهو ما يعني أنّ «الخروج عن جادة اللّغة يثير من يسمعونها، ويعرّض الخارج إلى السخرية »[29]. فسيبويه يركّز في تحليله على جانب الاستعمالي أكثر من تركيزه على جانبها البنائي، وهوما يدلّ على أنّه «كان يمارس بوعي نوعا من اللسانيات البنيوية لم تكن معروفة في الغرب حتى القرن العشرين، على الأقل فيما يخص هذا القسم من تحليله النحوي»[30].

ورغم ما لقيه سيبويه من نقد معاصريه، ومن جاء بعده من النحويين، لاتّهامه بالتركيز على المعاني وتخلّيه عن الألفاظ، من ذلك ما نقله الزبيدي في طبقاته عن أحمد بن يحي (ثعلب) قوله: «وإنّما لحق سيبويه الغلط؛ لأنّه عمل كلام العرب على المعاني وخلّى عن الألفاظ، ولم يوجد في كلام العرب، ولا أشعار الفحول إلّا المعنى»[31]، إلّا أنّ الواقع يشير إلى أنّ سيبويه لم يهمل الجانب البنائي إهمالاً تامّا،فـ:«الدلالة كانت وكده نحو الاستقامة، من دون إهمال البنية التركيبية للجملة، لأنّ وكده الأساسي هو وضع نظام نحوي متّسق لفهم الكلام تركيبا ودلالة. فلقد تتبّع سيبويه انتظام الأشكال اللّسانيّة بناءً ودلالة، ومدى ملاءمتها للواقع اللّغوي، ولما يسمح به المنطق الطّبيعي والمكتسب»[32]. ممّا يعني أنّ تحليل الظّواهر اللغويّة عنده يخضع لـ: «سيطرة التصوّر الدّلالي على التصوّر البنائي...فلذلك جاءت أحكامه على الكلام في معيارين متناقضين هما: المستقيم، والمحال. فالمستقيم هو المعيار المحقّق لوظيفة الكلام إبلاغا؛ لكونه مفهوما. وأمّا المحال فيتعذّر قبوله وفهمه لمناقضته الواقع اللغوي.

وكلاهما يرجع إلى السياق المعنوي لا السياق التركيبي»[33].

وهو يُفسّر الكلام المستقيم والمحال دلاليّا بقوله: « فأمّا المستقيم الحسن فقولك: أتيتُك أمس وسآتيك غداً، وأما المُحال فأن تنقض أول كلامك بآخره.فتقول: أتيتُك غداً وسآتيك أمس»[34]. ويتبيّن من خلال كلامه أنّ استعماله لفظي المستقيم والمحال راجع إلى «أنّهما يتعلّقان بالصدق الإخباري من عدمه،أي: قدرة المخاطَب على فهم الخبر بتعاونه مع المتكلّم...وهذا ما أكّده في أغلب تحليلاته،في أنّه يرى أنّ القصد لا يتحقّق من الكلام ما لم يفهم المخاطَب كلام المتكلّم، وإلّا لاستحال ذلك الفهم»[35]. كما أنّ مبدأ التعاون بين المخاطَب والمتكلم هو الآن مبدأ أساسي من مبادئ المدرسة الوظيفية، حيث يقول غرايس في هذا الصدد:«اجعل مشاركتك على النحو الذي يتطلّبه، في مرحلة حصولها، الغرض، أو المآل المسلم به من التخاطب المعقود»[36].

فالكلام المستقيم عنده له صفات ثلاث هي: الحسن، والكذب، والقبح، ولفظ (المستقيم) وحده دون أن تلحق به صفة من هذه الصفات الثلاث يشير إلى بنية مفهومة، وإن لم تراع ضوابط التأليف النحوي،وقواعده الصّحيحة، وفي ذلك يقول: «ويحتملون قبح الكلام حتى يضعوه في غير موضعه؛لأنّه مستقيم ليس فيه نقض. فمن ذلك قوله:

صدَدْتِ فأطوَلْتِ الصّدودَ وقلّما

وِصالٌ على طولِ الصّدود يدومُ.

وإنّما الكلام: وقلّما يدوم وصال»[37].

أمّا المستقيم إذا لحقته صفة الحسن فإنّه يتخلّق بمزايا تركيبية ودلالية نحو: سلامة بنائه النحوي ووضوح دلالته، وعدم مخالفة مضمونه، وأمّا المستقيم الكذب فهوما كان بناؤه صحيحًا، ودلالته مخالفة للواقع نحو: حملت الجبل. «وأمّا المستقيم القبيح فدليل على بناء نحوي غير سليم، ومخالف لقوانين التأليف النحوي، ولنظام اللغة المرتكز في أذهان أبنائها»[38]. وقد مثّل لذلك بقوله: «ولو قلت ائتني ببارد كان قبيحًا، ولو قلت ائتني بتمرٍ، كان حسنًا، ألا ترى كيف قبح أن يضع الصّفة موضع الاسم»[39].

وعليه نقول إنّ عدول المتكلّم عن اللغة المستخدمة في مجتمعه يؤدي إلى عدم فهم كلامه وبالتالي يلقى رفضا لدى بقية أفراد المجتمع، ذلك أنّ العملية التواصليّة تستلزم الاتّفاق بين طرفيها.

4- لفظ (الإحالة):المفهوم والخلفيّة:

يظهر أوّل استعمال لمصطلح الإحالة في "باب الاستقامة من الكلام والإحالة" الذي أورده سيبويه في مقدّمة كتابه، ويلاحظ من خلال كلامه عن المحال أنّه جاء في البداية مجرّدا من الصّفة، وقد جعل له حدّا يُعرف به، وهو نقض أوّل الكلام بآخره، وبذلك فإنّ المحال عنده هو ما احتوى في مضمونه على تناقض أدّى به إلى الخروج عن دائرة الفهم والمقبوليّة. أي أنّ «المحال هو الكلام الذي يوجب اجتماع المتضادات»[40]. أمّا القسم الثاني من المحال وهو المحال الكذب، فإنّ سيبويه لم يضع له حدّا واكتفى بالتّمثيل له بقوله:"سوف أشرب ماء البحر أمس". فالإحالة قائمة ههنا على الجمع بين النقيضين "سوف وأمس". أمّا صفة الكذب فمرجعها المعنى المجازي الذي تضمّنته الجملة، كما «أنّنا نجد تناقضا بين الظرف والمظروف، وهذا له أثر كبير في تقرير القبوليّة النحويّة عند سيبويه»[41].

وقد ذهب أبو الحسن الأخفش إلى مخالفة رأي سيبويه في هذا حيث يرى أنّه لا يصحّ إلحاق صفة الكذب بالمحال، وبالتالي لا وجود لكلام يقال فيه

محال كذب، وبناءً عليه وضع حدّا للمحال قائلا:«وأمّا المحال فهوما لا يصحّ له معنى، ولا يجوز أن تقول فيه صدق ولا كذب، لأنّه ليس له معنى. ألا ترى أنّك إذا قلت: أتيتك غدا لم يكن للكلام معنى تقول فيه صدق ولا كذب»[42]. ومجمل القول هو أنّ الإحالة عند سيبويه تعني خلو البنية اللّغويّة من أي معنى دلالي، وما تقسيم المحال إلى محال ومحال كذب إلّا لبيان درجات الكذب فيه لأنّه كذب كله.

ولم يكتف سيبويه في حديثه عن الإحالة بالمعاني اللغويّة فقط، وإنّما تجاوز ذلك بتوسيع معنى المحال لـ: «يخرج إلى دائرة المقام وما يكتنفه من علاقات بين المتكلّمين والمُخَاطَبين، وما تحدّده أحوالهم من أشكال مخصوصة للكلام تجوز في حال ولا تجوز في أخرى. فالإحالة _هنا_ مضبوطة بضوابط من خارج اللّغة، محكومة بما يقبله مقام الكلام _وليس الكلام_ وما لا يقبله»[43] وما حديثه عن علاقة المتكلّم بالمُخاطَب، وما يجوز من الكلام وما لا يجوز، إلّا دليل على وعيه التام بضرورة الرّبط بين اللّغة وسياقها الاجتماعي لإنجاح العمليّة التّواصليّة.

ومثال ذلك ما أورده في كتابه من «أنّ العرب تقول: هذا أنت تقول كذا وكذا. لم يرد بقوله هذا أنت، أن يعرّفه نفسه، كأنّه يريد أن يعلمه أنّه ليس غيره. هذا محال، ولكنّه أراد أن ينبّهه، كأنّه قال: الحاضر عندنا أنت، والحاضر القائل كذا وكذا أنت»[44]. وحكم الإحالة عنده ههنا مبني على تحليل موقف الإشارة «فقد لاحظ أنّه يقوم في المواضعات المتعارفة على ثلاث جهات: المتكلّم (المشير)، والمشار إليه، والمخاطب (المشار له)، ولاحظ أنّ المخاطب جهة لازمة في هذه الجهات، ولكنّه جهة واحدة، فلا يجوز في حكم التحليل الخارجي للعبارة أن يكون المخاطب مشارا إليه ومشارا له في آن معا»[45].

ويتبيّن من كلام سيبويه أنّه يحكم على التركيب بالإحالة في موقف ما، ويُجيزه ويحكم عليه بالاستقامة في موقف آخر، وذلك بناء على قصد المتكلّم. وهوما يعني أنّه بالإضافة إلى اعتماده على النحو والدّلالة في إصدار أحكامه قد اعتمد أيضا في بعض الأحكام على أبعاد تداولية لها علاقة بالقصد من الكلام والسّياق الذي يجري فيه التخاطب، وهو ما أثّر في الحكم على التركيب، فنجد التّركيب المقبول يصبح مرفوضا، والحسن قبيحا، أو العكس ومن أمثلة ذلك ما بيّنه في خضمّ تحليله لبعض الجمل من مثل قولهم: «مررت برجلٍ حمارٍ، فهو على وجه محال، وعلى وجه حسن. فأمّا المحال فأن تعني أنّ الرجل حمار. وأمّا الذي يحسن فهو أن تقول: مررت برجل، ثمّ تبدّل الحمار مكان الرّجل، فتقول: حمارٍ،إمّا أن تكون غلطت أو نسيت فاستدركت، وإمّا أن يبدو لك أن تُضرب عن مرورك بالرجل وتجعل مكانه مرورك بالحمار، بعد أن كنت أردت غير ذلك»[46]. وهذا الاستدراك في الكلام هو« ما يسمّيه بعض النحاة بدل الغلط أو الخطأ أو النسيان، فالاستقامة والإحالة معياران يشيران إلى مدى قدرة المتكلّم على التواصل ضمن تقاليد المجتمع»[47].

فالنّظرة الاجتماعيّة إلى اللّغة ظاهرة بوضوح في تحليله لهذا التركيب من خلال تركيزه على مقصد المتكلّم، فنجده يحكم عليه بأنّه محال في حالة ما إذا كان المتكلّم يعني ظاهر القول، في حين يحكم عليه بالحسن إن كان الكلام على سبيل الغلط أو النسيان، وعليه فإنّ فهم الكلام يختلف باختلاف الحال، وهو ما أشار إليه الشاطبي في قوله: «الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين، وبحسب مخاطبين»[48].

ومن الأمثلة التي أوردها في هذا الصدد نجد كذلك تحليله جملة (هو زيد منطلقا) فلو«أنّ رجلا

من إخوانك ومعرفتك لو أراد أن يخبرك عن نفسه أو عن غيره بأمر فقال: أنا عبد الله منطلقا، وهو زيدُ منطلقا كان محالاً؛ لأنّه إنّما أراد أن يخبرك بالانطلاق ولم يقل هوولا أنا حتى استغنيت أنت عن التّسمية، لأنّ هو وأنا علامتان للمضمر، وإنّما يُضمر إذا علم أنّك قد عرفت من يعني. إلّا أنّ رجلا لو كان خلف حائط، أوفي موضع تجهله فيه فقلت من أنت؟ فقال: أنا عبد الله منطلقا في حاجتك، كان حسنا»[49].

ففي هذا المثال يحكم سيبويه على التركيب بحكمين مختلفين وذلك بالنّظر إلى كل عناصر العملية التواصلية المشاركة في الحدث، من متكلم ومخاطب وحال، وهي نظرة شموليّة للحدث التّواصلي، تتعدّى النحو والدّلالة، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على وعي وإدراك في فكر سيبويه بجانب اللّغة الاجتماعي.

خاتمة:

أظهرت لنا هذه الدّراسة أنّ سيبويه ينظر إلى اللغة على أنّها نشاط إنساني يتفاعل مع المحيط، ولذلك نجده يربط النحو بالاستعمال الفعلي للّغة في المجتمع، ويظهر ذلك في تركيزه على المتكلم والمخاطَب والعلاقة بينهما، وكذا السّياق الاجتماعي الذي يجري فيه الخطاب من أجل ضبط مقاصد الكلام. ويمكن إيجاز أهم النّقاط التي توصّلنا إليها فيما يخص اجتماعيّة اللغة في الدّرس النحوي عنده فيما يأتي:

- أنّ اجتماعيّة اللّغة تصوّر سابق عند سيبويه، وما انعكاس هذه الاجتماعية في النحو عنده إلاّ صورة طبيعيّة لفكره .
- أنّه وظّف الألفاظ الاجتماعيّة المألوفة لدى المتكلِّم والمُخاطَب لخدمة الدّرس النحوي.
- أنّه يركّز على جانب اللّغة التواصلي، ويبرز ذلك في اهتمامه الكبير بالمعاني.
- أنّه عُني بعمليّة التخاطُب بكلّ مكوّناتها؛ من متكلّم ومُخاطَبٍ، وسياق تخاطب لدليل على وعي مسبق عنده بجانب اللّغة الاجتماعي .
- أنّ الألفاظ والمفاهيم الاجتماعيّة الّتي أوردها سيبويه في مقدّمة كتابه صارت معايير يُحتكم إليها في توجيه مختلف المسائل النحويّة المبثوثة في كتابه.
- أنّه كان سبّاقاً إلى مسألة ضرورة الربط بين اللّغة والمجتمع، وهو ما لم تبلغه اللّسانيات إلّا في القرن العشرين.

الهوامش والإحالات:

[1] المتولي محمود المتولي عوض حجاز، مصطلح (الخلف) في كتاب سيبويه، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعيّة، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، الحولية الرابعة والثلاثون، 2014، ص 27- 28.

[2] المرجع نفسه، ص28.

[3] محمد ناجي حسين دراغمة، (2012)، الحياة الاجتماعيّة وأثرها في أمثلة النحاة وشواهدهم في عصور الاحتجاج، أطروحة مقدّمة استكمالًا لمتطلبات درجة الماجستير في اللغة العربيّة، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنيّة، فلسطين، ص20.

[4] محمد ربّاع، أثر الأعراف الاجتماعيّة في مسيرة العربيّة، البلقاء للبحوث والدّراسات، جامعة النّجاح الوطنيّة، فلسطين، العدد1، المجلد11، أوت 2005، ص15.

[5] يُنظر، حمد ناجي حسين دراغمة، (2012)، الحياة الاجتماعيّة وأثرها في أمثلة النحاة وشواهدهم في عصور الاحتجاج، ص75.

[6] أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي، (1997)، الموافقات، ج5، ضبط نصّه و قدّم له وعلّق عليه

وخرّج أحاديثه: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سليمان، دار ابن عفان، ط1، السعودية، ص 53.

[7] نوح بن يحي صالح الشهري، (2020)، أثر السياق في النظام النحوي، دار طيبة الخضراء للنشر والتوزيع، ط1، جدة، ص21.

[8] يُنظر، محمد ناجي حسين دراغمة، (2012)، الحياة الاجتماعيّة وأثرها في أمثلة النحاة وشواهدهم في عصور الاحتجاج، ص31.

[9] لطيفة إبراهيم النجّار، مفهوم الإحالة عند سيبويه: أبعاده وضوابطه، المجلّة الأردنيّة في اللغة العربية و آدابها، الأردن، العدد1، المجلد3، 2007، ص 88.

[10] المتولي محمود المتولي عوض حجاز، المرجع السّابق، ص 34.

[11] سيبويه، (1991)، الكتاب، ج1، تحقيق و شرح عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، ط1، بيروت،ص25- 26.

[12] أبي سعيد السيرافي الحسن بن عبد الله بن المرزبان، (1990)، شرح كتاب سيبويه، تحقيق: رمضان عبد التواب، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، القاهرة، ج2، ص 89.

[13] محمد حماسة عبد اللطيف، (2000)، النحو والدلالة، مدخل لدراسة المعنى النحوي- الدلالي، دار الشروق، ط1، بيروت، ص 66.

[14] المرجع نفسه، ص68.

[15] أبي سعيد السيرافي الحسن بن عبد الله بن المرزبان، شرح كتاب سيبويه ، ص 93.

[16] محمد حماسة عبد اللطيف، المرجع السّابق، ص 72، 73.

[17] أبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري، الصناعتين (الكتابة والشّعر)، (1419ه)المكتبة العصرية، د.ط، بيروت، ص70.

[18] محمد حماسة عبد اللطيف، المرجع السّابق، ص 72، 73.

[19] أبي سعيد السيرافي الحسن بن عبد الله بن المرزبان، شرح كتاب سيبويه ، ص 92.

[20] لطيف حاتم عبد الصاحب الزاملي، الكلام المستقيم في النظر النحوي عند سيبويه، (دراسة في المصطلح واستعماله)، مجلة القادسية للعلوم الإنسانية، العددان 3-4، المجلد8، 2005، ص 180.

[21] خديجة الحديثي، (1981)، موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث الشريف، دار الرشيد للنشر، دط، العراق، ص14.

[22] محمد ربّاع، أثر الأعراف الاجتماعيّة في مسيرة العربيّة، ص15.

[23] لطيف حاتم عبد الصاحب الزاملي، الكلام المستقيم في النظر النحوي عند سيبويه، (دراسة في المصطلح واستعماله)، ص180.

[24] سيبويه، الكتاب، ص25- 26.

[25] لطيف حاتم عبد الصاحب الزاملي، الكلام المستقيم في النظر النحوي عند سيبويه، (دراسة في المصطلح واستعماله)، ص180.

[26] مايكل جي كارتر، نحوي عربي من القرن الثامن للميلاد، دراسة عن منهج سيبويه في النحو، ترجمة: عبد المنعم آل ناصر، مجلة المورد، العراق، العدد1، المجلد 20، 1992، ص 29.

[27] لطيف حاتم عبد الصاحب الزاملي، الكلام المستقيم في النظر النحوي عند سيبويه، (دراسة في المصطلح واستعماله)، ص180.

[28] مايكل جي كارتر، نحوي عربي من القرن الثامن للميلاد، دراسة عن منهج سيبويه في النحو ، ص 29.

[29] حسن عبد الغني جواد الأسدي، (2000)، مفهوم الجملة عند سيبويه، دار الكتب العلمية، ط1، لبنان، ص 167.

[30] مايكل جي كارتر، نحوي عربي من القرن الثامن للميلاد، دراسة عن منهج سيبويه في النحو ، ص 29.

[31] أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي، (1973)، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، دط، مصر، ص 111.

[32] لطيف حاتم عبد الصاحب الزاملي، الكلام المستقيم في النظر النحوي عند سيبويه، (دراسة في المصطلح واستعماله)، ص 182.

[33] لطيف حاتم عبد الصاحب الزاملي، المرجع نفسه، ص 182.

[34] سيبويه، الكتاب، ص25.

[35] لطيف حاتم عبد الصاحب الزاملي، الكلام المستقيم في النظر النحوي عند سيبويه، (دراسة في المصطلح واستعماله)، ص 182.

[36] عادل فاخوري، الاقتضاء في التداول اللساني، عالم الفكر، الكويت، عدد3، مجلد20، 1989، ص 146.

[37] سيبويه، الكتاب، ص31.

[38] لطيف حاتم عبد الصاحب الزاملي، ، الكلام المستقيم في النظر النحوي عند سيبويه، (دراسة في المصطلح واستعماله) ص 183.

[39] سيبويه، الكتاب، ص27.

[40] أبي سعيد السيرافي الحسن بن عبد الله بن المرزبان، ، شرح كتاب سيبويه ص 92.

[41] لطيف حاتم عبد الصاحب الزاملي، الكلام المستقيم في النظر النحوي عند سيبويه، (دراسة في المصطلح واستعماله)، ص 183.

[42] سيبويه، الكتاب، ص26.

[43] لطيفة إبراهيم النجّار، مفهوم الإحالة عند سيبويه: أبعاده و ضوابطه ، ص 88.

[44] سيبويه، الكتاب، ص 355.

[45] لطيفة إبراهيم النجّار، مفهوم الإحالة عند سيبويه: أبعاده و ضوابطه ، ص 87.

[46] سيبويه، الكتاب، ص 439.

[47] أحمد حسن الحسن، الضوابط التداوليّة في مقبوليّة التركيب النحوي، مجلّة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد2، المجلّد11، ديسمبر2014، ص 256.

[48] أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي، الموافقات، ص 347.

[49] سيبويه، الكتاب، ص 80، 81.

قائمة المصادر والمراجع:

1. أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي، (1997)، الموافقات، ج5، ضبط نصّه و قدّم له وعلّق عليه وخرّج أحاديثه: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سليمان، دار ابن عفان، ط1، السعودية.
2. أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي، (1973)، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، دط، مصر.
3. أبي سعيد السيرافي الحسن بن عبد الله بن المرزبان، (1990)، شرح كتاب سيبويه، تحقيق: رمضان عبد التواب، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، القاهرة، ج2.
4. أبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري، الصناعتين (الكتابة والشّعر)، (1419ه)المكتبة العصرية، د.ط، بيروت.
5. أحمد حسن الحسن، الضوابط التداوليّة في مقبوليّة التركيب النحوي، مجلّة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد2، المجلّد11، ديسمبر2014.
6. حسن عبد الغني جواد الأسدي، (2000)، مفهوم الجملة عند سيبويه، دار الكتب العلمية، ط1، لبنان.
7. خديجة الحديثي، (1981)، موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث الشريف، دار الرشيد للنشر، دط، العراق.
8. سيبويه، (1991)، الكتاب، ج1، تحقيق و شرح عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، ط1، بيروت.
9. عادل فاخوري، الاقتضاء في التداول اللساني، عالم الفكر، الكويت، عدد3، مجلد20، 1989.
10. لطيف حاتم عبد الصاحب الزاملي، الكلام المستقيم في النظر النحوي عند سيبويه، (دراسة في المصطلح واستعماله)، مجلة القادسية للعلوم الإنسانية، العددان 3-4، المجلد8، 2005.
11. لطيفة إبراهيم النجّار، مفهوم الإحالة عند سيبويه: أبعاده وضوابطه، المجلّة الأردنيّة في اللغة العربية و آدابها، الأردن، العدد1، المجلد3، 2007.
12. مايكل جي كارتر، نحوي عربي من القرن الثامن للميلاد، دراسة عن منهج سيبويه في النحو، ترجمة: عبد المنعم آل ناصر، مجلة المورد، العراق، العدد1، المجلد 20، 1992.
13. المتولي محمود المتولي عوض حجاز، مصطلح (الخلف) في كتاب سيبويه، حوليات الآداب والعلوم

الاجتماعيّة، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، الحولية الرابعة والثلاثون، 2014.

14. محمد حماسة عبد اللطيف، (2000)، النحو والدلالة، مدخل لدراسة المعنى النحوي- الدلالي، دار الشروق، ط1، بيروت.

15. محمد ناجي حسين دراغمة، (2012)، الحياة الاجتماعيّة وأثرها في أمثلة النحاة وشواهدهم في عصور الاحتجاج، أطروحة مقدّمة استكمالًا لمتطلبات درجة الماجستير في اللغة العربيّة، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنيّة، فلسطين.

16. نوح بن يحي صالح الشهري، (2020)، أثر السياق في النظام النحوي، دار طيبة الخضراء للنشر والتوزيع، ط1، جدة.